

صيد الخاطر

188 - - فصل : في العزلة التفكير في زاد الرحيل .

ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخلق خصوصاً للعالم و الزاهد فإنك لا تكاد ترى إلا شامتا بنكبة أو حسوداً على نعمة و من يأخذ عليك غلطاتك .

فيا للعزلة ما الذها سلمت من كدر غيبة و آفات تصنع و أحوال المداجاة و تضييع الوقت ثم خلا فيها القلب بالفكر لأنه مستلذ عنه بالمخالطة فدبر أمر دنياه و آخرته فمثله كمثل الحمية يخلو فيها المعني بالأخلاق فيذيبها .

و ما رأيت مثل ما يصنع المخالط لأنه يرى حالته الحاضرة من لقاء الناس و كلامهم فيشتغل بها عما بين يديه فمثله كمثل رجل يريد سفراً قد أزرق فجالس أقواماً فشغلوه بالحديث حتى ضرب البوق و ما تزود فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل و السلامة من شر المخالطة كفى .

ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم و الزاهد فإنهما يعلمان مقصود العزلة و إن كانا لا في عزلة .

أما العالم فعلمه مؤنسه و كتبه محدثه و النظر في سير السلف مقومه و التفكير في حوادث الزمان السابق فرجته .

فإن ترقى بعلمه إلى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه و تشبث بأذيال محبته تضاعفت لذاته و اشتغل بها عن الأكوان و ما فيها .
فخلا بحبيبه و عمل معه بمقتضى علمه .

و كذلك الزاهد تعبده أنيسه و معبوده جليسه فإن كشف لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلق و غابوا عنه .

إنما اعتزلاً ما يؤدي فهما في الوحدة بين جماعة فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق و سلم الخلق من شرورهما .

بل هما قدوة للمتعبدين و علم للسالكين ينتفع بكلامهما السامع و تجري موعظتهما المدافع و تنتشر هيبتها في المجامع .

فمن أراد أن يشبهه بأحدهما فليصابر الخلوة و إن كرهها ليثمر له العسل و أعود بال [] من عالم مخالط للعالم خصوصاً لأرباب المال و السلاطين يجتلب و يجتلب و يختلب فما يحصل له شيء من الدنيا إلا و قد ذهب من دينه أمثاله .

ثم أين الأنفة من الذل للفساق ؟ .

فالذي لا يبالي بذلك هو الذي لا يذوق طعم العلم و لا يدري ما المراد به و كأنه به و قد
وقع في بادية جزر و قفر مهلك في تلك البراري .
و كذلك المتزهّد إذا خالط و خلط فإنه يخرج إلى الرياء و التصنع و النفاق فيفوته الحطان
لا الدنيا و نعيمها تحصل له و لا الآخرة .
فنسأل الله خلوة حلوة و عزلة عن البشر لذيدة يستصلحنا فيها لمناجاته و يلهم كلاً منا
طلب نجاته إنه قريب مجيب